﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦﴾ [النّساء: 66]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أهميَّة الإذعان لأمر الله، وندرة استجابة المنافقين له

لَمَّا كانت هذه الآيةُ متَّصلةً بما تقدَّم من أمر المُنافقينَ، وترغيبِهم في الإخلاص، وتركِ النِّفاق[1]، وقد بيَّنت الآياتُ السَّابقةُ أحوالَ المُنافقينَ، وصفاتِ الإيمان، وأنَّ مَظهر قوَّة الإيمان إطاعةُ الله ورسولِه، والرُّجوعُ إلى الكتاب والسُّنَّة عند الاختلاف، وتحكيمُهما في كلِّ أمور الحياة الَّتي تحتاج إلى حُكْم وفصْلٍ؛ بيَّن في هذه الآيةِ: أنَّ الَّذين يُذعنون لأمر الله ونهْيه، حتَّى في النَّفس وتركِ الأهل، قليلون، وليسوا كثيرين، وهُمُ الَّذين تقومُ عليهم قوَّة الأمَّة[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱخۡرُجُواْ﴾: الخاءُ والرَّاءُ والجيمُ: أَصلان يدلُّ أحدُهما على النَّفاذِ عَنِ الشَّيءِ[3]، والخروج نقيض الدُّخول[4]، وخرج خروجًا: برزَ من مقرِّه، أو حالِه، سواء أكان المقرُّ دارًا، أم بلدًا، أم غير ذلك؛ بسببٍ من نفْسِه، أو بسببٍ خارج عنه[5]، والمُراد بالخروج مِنَ الدِّيار في الآية الكريمة: الهجرةُ مِنَ البلد منصرفين للجهاد في سبيل الله تعالى، والخروج مِنَ الأوطان إلى أماكنَ فيها استجابةٌ لأمرِ الله[6].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/129.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1746.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج)، والأَصْلُ الأَخَر: الْخَرَج، وهو لَوْنَانِ بَيْنَ سَوَادٍ وَبَيَاض، يُقَال: نَعَامَةٌ خَرْجَاءُ وَظَلِيمٌ أَخْرَج، وهما أصلان يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا، إِلَّا أَنَّ ابن فارس في "مقاييسه" سَلَكَ طَرِيقَ التَّقسيم والتَّوضيح.

(4) الخليل، العين: (خرج).

(5) الرّاغب، المفردات: (خرج).

(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1747، طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/204.

2) ﴿دِيَرِكُم﴾: الدَّالُ والواوُ والرَّاءُ: أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إحداقِ الشَّيء بالشَّيء من حَواليه[1]، ومنه الدَّار: وهي كلُّ مَوضِع حلَّ به قومٌ، وهو اسمٌ جامعٌ للعَرْصَةِ، والبناء، والمحلَّة[2]، وهي المنزل، وسُمِّيت بذلك اعتبارًا بالحائط الَّذي يدور حولها، أو من كثرة حركات النَّاس ودورانهم فيها، وقد تُسمَّى بها - على التَّوسُّعِ - البلدة، والصُّقع، والدُّنيا، والقَبِيلة[3]، وكل ما جاء في القرآن بلفظ (دار) و(ديار) مضافًا؛ فهو من دُور هذه الدُّنيا[4]، والدِّيار في الآية الكريمة: هي مَحِلُّهم، ومَوضِعُ إقامتهم.

3) ﴿يُوعَظُونَ﴾: الواوُ والعينُ والظَّاءُ: كلمةٌ واحدةٌ، فالوَعظُ: التَّخويفُ، والعِظَةُ والموعظة الاسمُ منه: وهو تذكيرُك إيَّاه الخيرَ ونحوَه ممَّا يرقُّ له قلبُهُ، ويلينُ من ثَواب وعقاب[5]، والوَعظُ: النُّصحُ والتَّذكيرُ بالعواقب[6]، وهو أيضًا: زجرٌ مقترنٌ بتخويف[7]، ومن معانيه: ألَّا تُنشِئَ حُكمًا للسَّامع، بل تَعظه بتنفيذ ما عُلِم له من قبلُ[8]، وخلاصةُ المعنى: كلُّ كلامٍ، أو عملٍ يُنَبَّه به الإنسانُ إلى عواقب ما يفعلُه، أو ما هو مُقدِمٌ عليه ليتوقَّفَ عنه، وكأنَّ الأصل في معنى التَّركيب: أنَّه خاصٌّ بالزَّجر عمَّا له عواقب سيِّئة حسبُ، ثمَّ عُمِّم في الحضِّ على ما له ثوابٌ[9].

4) ﴿تَثْبِيتًا﴾: الثَّاءُ والباءُ والتَّاءُ: كلمةٌ واحدةٌ تدلُّ على دَوام الشَّيء، يُقالُ: ثَبَتَ ثَباتًا وثُبوتًا[10]، وتَثَبَّت في رأيه وأَمرِه؛ إذا لم يَعجَل، وتَأَنَّى فيه، واستَثبَتَ في أمره: إذا شاوَرَ، وفحص عنه[11]، والمعنى المحوريُّ للثَّبات هو: متانةُ ارتباط الشَّيء المتنقِّل بما لُزَّ به، أو قام عليه لا يتحَلْحَل، كما يرْسَخُ الرَّحلُ على ظهْر الجَمل بالثَّبات، ومنه الثُّبوت في المكان رسوخًا حقيقيًّا[12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).
(2) الخليل، العين: (دور).
(3) ابن سيده، المحكم: (دور)، والرّاغب، المفردات: (دار).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (دور - دير)
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ابن سيده، المحكم: (وعظ).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (وعظ).
(7) الرَّاغب، المفردات: (وعظ).
(8) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4348.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (وعظ).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثبت).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ثبت).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ثَبَتَ).

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾: التَّحْقِيقُ وَالتَّصْدِيقُ لِإِيمَانِهِمْ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الخيريَّة والتَّثبيت جزاء الطَّاعة، والاستجابة للموعظة

يخبرُ تعالى أنَّه لو فرَضَ على هؤلاءِ المنافقين - المتحاكمين إلى الطَّاغوتِ - الأوامرَ الشاقَّة على النُّفوس، نحو أنْ يأمرهم أن يَقتلَ بعضُهم بعضًا، وبالخروج منِ الأوطان لصعُبَ ذلك عليهم، ولم يفعله إلَّا الأقلُّون منهم، وحينئذٍ يظهر كفرُهم وعنادُهم، فلمَّا لم نفعل ذلك رحمةً منَّا على عبادنا، بل اكتفينا بتكليفهم في الأمور الهيِّنة اليسيرة، فليقابلوها بالإخلاص، وليتركوا التَّمرُّد، والكِبْرَ، والعناد حتَّى ينالوا خير الدَّارين[2]؛ فإنَّ جزاء قَبول الموعظة الخيريَّة في عاجل دنياهم، وآجل معادهم، والتَّثبيت لهم في أمورهم وأقوى لإيمانهم[3].

وترشد الآية الكريمة إلى: أنَّ المؤمن في الحقيقة من يسلِّم تسليمًا، وفي ذلك تنبيهٌ على قصورِ كثيرٍ منَ النَّاس ووهنِ إسلامهم[4]، وفي الآية أيضًا دليلٌ على صعوبة الخروج منَ الدِّيار؛ إذ قرنه الله تعالى بقتل الأنفُس[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

المُفتتحُ توبيخٌ للمنافقين؛ لكثرة تلوُّنهم، وتحريضٌ للمؤمنين؛ لامتثال الأوامر

وجهُ وصل الآية بما قبلَها:

ابتدأ بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ موبِّخًا المُنافقينَ، أي: لو شدَّدنا عليهم التَّكليف؛ لمَا كان منَ العجب ظهور عنادهم، ولكنَّا رحمناهم بتكليفهم اليُسرَ، فليخلصوا، ويذروا عنادهم، وكِبْرهم، فإنَّها مناط الخيريَّة في الدَّارين[6]، وفي هذا توبيخٌ عظيمٌ[7]، ووجهه

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/246.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/129.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 8/528.
(4) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1307، والآلوسّي، روح المعاني: 5/73.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/297.
(6) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/129.
(7) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/530.

أنَّه لا يمتثلُ أمرَ اللّه إلَّا القليلُ منهم[1]، وهي على هذا الوجه يصلحُ خطابُ المنافقين؛ لأن يكون تحريضًا للمؤمنين على امتثال الرَّسول، وانتفاء الحَرَج عنهم من أحكامه، فإنَّه سبحانه لم يكلِّف عباده إلَّا اليُسرَ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، كلُّ هذا محمول على أنَّ المُراد بقتل النُّفوس أن يقتل أحد نفسَه بنفسِه[2].

وجه التَّوبيخ التَّنبيه على ضعف إيمان المنافقين

نبَّه تعالى في هذه الآية على ضعف عقيدة المنافقين، ووهن إيمانهم، وهشاشة مبادئهم، فالمؤمنُ الحقُّ هو من يُذعِنُ لأمر خالقه، ويسلِّم فيما يأمر تسليمًا[3].

براعةُ المقطعِ في مَطلَع الآية:

وجه البراعة تهيئة لانتقال الكلام إلى التَّحريض على الجهاد

تُلْمَسُ براعة المقطع في هذا المطلع في التَّهيئة لانتقال الكلام إلى التَّحريض على الجِهاد الآتي في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ﴾، وأنَّ المُراد بـ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ ليقتل بعضكم بعضًا، فإنَّ المؤمنين يقاتلون قومَهم وأقاربَهم منَ المشركين في الجِهاد المأمور به بدليل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾[4].

بديعُ الافتتاح بصحَّة التَّفسير:

وجه صحَّة التَّفسير ليتخصَّص من احتمالات المعنى المُراد

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ هو من أنواع صحَّة التَّفسير[5]، فالمكتوب عليهم هو المفسر؛ لأنَّه يحتمل أنْ يكون ما فُسِّرَ به، ويحتمل غيره، وهذا الاحتمال يحتاج إلى التَّفسير؛ ليتخصَّص من احتمالات المعنى المُراد، والتَّفسير قوله: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَـٰرِكُم﴾[6].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/297.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/114.
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1307.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/114.
(5) "صحة التَّفسير: وهي أن يضع الشَّاعر معاني يريد أن يذكر أحوالها في شعره الَّذي يصنعه، فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها، ولا يزيد أو ينقص"، ينظر: ابن قدامة، نقد الشِّعر، ص: 48.
(6) الإندونيسي، الشَّامل في بلاغة القرآن: 1/243.

نكتةُ الالتفات إلى ضمير التَّكلُّم:

الالتفاتُ فيه تعظيمٌ لشأنِ الكاتبِ والمكتوب

سياقُ الكلام في الآية السَّابقة ومختتم الَّتي قبلها جاء التَّعبير فيه بضميري الغيبة، والخطاب بوصفه خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابَا رَّحِيمَا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: 64]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ [النساء: 65]، ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمَا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65]، وانتقل هنا - في هذه الآيةِ - من تشريف النَّبيِّ ﷺ إلى تعظيم نفسه جلَّ في علاه، فهو ﷻ الَّذي يقدِّرُ القتلَ على النُّفوسِ، والإخراجَ من الأوطان، وهو الآمر بهما، فلا يَقْدر أحدٌ على وقوعهما سواه، وأكَّد ذلك التَّعظيم بـ ﴿أَنَّا﴾، وبإضافة فرْضِ هذه الواجبات - لو أرادها - إليه تعالى شأنه، وتقدَّست أفعالُه؛ لِعِظَمِ شأن الأمرين، ولاختصاصهما بقدرته، وبتعْديةِ فعلِ الكتابة بـ (على) فهو أمرٌ مُنزَّل، محلُّ سرعة الاستجابة، والامتثال.

سرُّ التَّعبير بـ﴿وَلَوْ﴾:

يـدلُّ التَّعبير بـ (لـو) على أنَّ امتناع وقوع التَّكليف؛ إذ لا يكلِّف اللهُ نفسًا إلَّا وسعها

تعدُّ (لو) حرف شرطٍ في الامتناع أو في غَيْر الإمْكان، وتدلُّ على امتناع الجوابِ لامتناع الشرط، والتَّعبير بها مفيدٌ أنَّ التَّكليف لا يقع هاهنا، فالله تعالى لو يكلِّف ذلك التَّكليف؛ لثقُل التَّكليف إلَّا على عدد قليل من النَّاس[1]، والتَّكليفات الشَّرعيَّة لا تكون إلَّا فيما يطاق من غير مشقَّة مجهدة؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286]، ويقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]. فهذا الدِّينُ ميسَّرٌ لينهض به كلُّ ذي فطرة سويَّة، والله ﷻ الَّذي فرض على الإنسان تكاليف هذا الدِّين يعلم أنَّها داخلة في مقدور الإنسان، وهو لم يشرِّع هذا الدِّينَ للقلائل الممتازين من النَّاس، وقتلُ النَّفس، والخروجُ من الدِّيار، مثالان للتَّكاليف الشاقَّة الَّتي لو كتبت على النَّاس ما فعلها إلَّا قليلٌ منهم، وهي لم تكتب؛ لأنَّه ليس المراد من التَّكاليف أن

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1747.

يعجز عنها عامَّة النَّاس أو ينكُلوا عنها، بل المراد أن يقدر عليها الجميعُ ويؤدُّوها[1].

معنى الضَّمير في: ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

الضَّمير في قوله: ﴿كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ فيه قولان:

رحمة الله بعباده تكليفهم بالأحكام السَّهلة، فمن شكره إخلاص العمل

الأول: أنَّه عائد إلى المنافقين؛ لأنَّه تعالى كَتبَ على بني إسرائيل أن يَقْتلوا أنفسهم، وكَتبَ على المهاجرين أن يخرجوا من ديارهم، فالمعنى: ولو أنَّا كتبنا القتل والخروج من الوطن على هؤلاء المنافقين ما فعله إلَّا قليلٌ منهم رياء وسمعة، وحينئذٍ يصعب الأمر عليهم، وينكشف كفرهم، فإذا لم نفعل ذلك بل كلَّفناهم بالأشياء السَّهلة، فليتركوا النِّفاق، وليقبلوا الإيمان على سبيل الإخلاص، وهو قول ابن عباس ومجاهد، واختيار أبي بكر الأصمِّ والقَفَّال.

الثاني: أنَّ المرادَ لو كتبَ اللهُ على النَّاس ما ذكر لم يفعله إلَّا قليلٌ منهم، فلمَّا لم يفعل - سبحانه - ذلك رحمةً بعباده، بل اكتفى بتكليفهم بالأمور السَّهلة، فعليهم أن يُقْبلوا عليها بإخلاصٍ حتَّى ينالوا خيرَ الدَّارين.

وعلى التَّقدير الثَّاني التَّقدير دخل تحت هذا الكلام المؤمن والمنافق[2].

جمال الإتْباع بصحَّة التَّقسيم:

استيفاءُ صحَّة التَّقسيم في وجهي المشقَّة

اندرجَتْ في صحَّة التَّفسير في الآيةِ الكريمة صحَّةُ التَّقسيم[3]، وذلك باستيفاء وَجهَي المشقَّة المؤلمين، وهما: قتل النَّفس، والإخراج منَ الدِّيار، ودليلُ صعوبة الخروج منَ الدِّيار أنَّ الله تعالى قرنه بقتل الأنفس[4].

---

(1) الصافي، الجدول: 3/84.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/130، طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/204.

(3) "صحَّة الأقسام: عبارة عن استيفاء المتكلِّم أقسام المعنى الَّذي هو آخذ فيه، بحيث لا يغادر منه شيئًا"، ينظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص: 173.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/297.

وجه المقابلة بين القتل والإخراج:

الجسم دار الرُّوح، والوطنُ دارُ الجسم

عمليَّة القتْل قرينةٌ لعمليَّة الإخراج منَ الدِّيار، فساعة يُقتل الإنسان، فيعيش الألم، وساعة يخرج من وطنه فيتألَّم، وكلاهما شاقٌّ على الإنسان، ويعْسُر تحمُّلُه إلَّا مَن صبَّره الله[1]، فـ"الجسم دار الرُّوح، والوطنُ دارُ الجسم"[2].

علَّة تقديم قتل النَّفس على الإخراج مِنَ الدِّيار:

نفي القيام بالفعل يناسبُه البدء بالأشقِّ منه

قتلُ النَّفس أشقُّ وأصعبُ مِنَ الإخراج مِنَ الدِّيار، فالأصل في المستحبَّات بقاء النَّفس؛ دوامًا للحياة، وطول أمل، والقتلُ إزهاق لها، وانتفاءٌ لوجودها، والإخراج مشقَّةٌ مع بقائها، فهي أهونُ في المشقَّة، ولذلك قدَّم الأصعب على الأهون صعوبةً، بدليل قرينة إتْباعهما بجملة: ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾، ونفي القيام بالفعل يناسبُه البدءُ بالأشقِّ منه.

سرُّ التَّعبير بالخروج:

التَّعبير بالخروج قصْدٌ إلى المهاجرين والمجاهدين

المُراد بالخروج منَ الدِّيار: الهجرة، أي: كتبنا عليهم هجرة منَ المدينة، وخروجًا من الدِّيار، وفي هذا تنويهٌ بالمُهاجرين والمُجاهدين[3].

عِلَّةُ توحيد الضَّمير في ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾:

بيانُ اتِّحاد جنس الفعل، وإن اختلفت ضروبُه

الضَّمير في قوله: ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ شاملٌ القتلَ والخروجَ معًا؛ لأنَّ الفعل جنسٌ واحدٌ، وإن اختلفَت ضرُوبُه[4]، وفيه إلماحٌ إلى قربهما في المشقَّة على المرء بحسب ما أشيرَ إليه.

وجهُ القراءتين في ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾:

قرأ ابن عامر بالنَّصب، وقرأ الباقون من القرَّاء العشرةِ بالرَّفع[5]، "من رفع؛ فعلى تكرير الفعل، كأنَّه قال: ما فعلوه، ما فعله

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 4/2379.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/195.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/114.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/130.
(5) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/250.

إلَّا قليل منهم، ومن نصب؛ فعلى الاستثناء، كأنَّه قال: استثنى قليلًا منهم "[1]، أي: إلَّا فعلًا قليلًا ممَّا يُوعَظونَ به من اتِّباع رسول اللَّه ﷺ وطاعته، والانقياد لما يراه ويحكم به؛ لأنَّه الصَّادق المصدوق الَّذي لا ينطق عنِ الهوى[2]، ويتحقَّقُ الجمع بين القراءتين دون أدنى تكلُّف، فالاستثناء كان مدحًا وثناءً للَّذين فعلوا هذه التَّكاليف بالرَّغم من ثقلها عليهم، والرَّفع على البدل من الواو في ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾، والمعنى: ما فعله إلَّا قليلٌ منهم ممَّن استجاب لأمر اللَّه[3].

من فعل التَّكليف برغم ثقله يستحقُّ الثَّناء، والمدْح

نكتة التَّعبير عنِ التَّكليف بالوعْظ:

ومعنى: ﴿مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ عُلِم من قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النِّساء: 63]، أي: ما يؤمرون به أمرَ تحذيرٍ وترقيقٍ، أي: مضمون ما يوعظون؛ لأنَّ الوعظَ هو الكلام والأمر، والمفعول هو المأمور به، أي: لو فعلوا كلَّ ما يبلِّغهم الرَّسول، ومن ذلك الجهاد والهجْرة[4].

معنى الوعظ ما يؤمرون به أمرُ تحذيرٍ وترقيقٍ

سُمِّي هذا التَّكليف والأمر وعظًا؛ لأنَّ تكاليفَ اللَّه تعالى مقرونةٌ بالوعد والوعيد، والتَّرغيب والتَّرهيب، والثَّواب والعقاب، وما كان كذلك فإنَّه يسمَّى وعظًا[5]، ومن هنا سُمِّيت أوامرُ اللَّه تعالى ونواهيه: مواعظَ[6].

التَّعبير بالوعظ؛ لأنَّ تكاليفَه تعالى مقرونةٌ به

وجوهُ تعْدية الوعْظِ بالباء:

الوعظُ: هو التَّذكار بما يحلُّ بمن خالف أمرَ اللَّه تعالى مِنَ العقاب، فالمُوعَظُ به: الجُمل الدَّالَّة على ذلك، ولا يمكن حملُه على هذا الظَّاهر؛ لأنَّهم لم يؤمروا بأن يفعلوا المُوعَظَ به، وإنَّما عرَضَ لهم شرح ذلك بما خالف الظَّاهر؛ لأنَّهم علقوا به بقوله: ﴿مَا

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/311.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/530.
(3) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 206 - 207.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/114.
(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.

﴿يُوعَظُونَ﴾، على طريقة ما يفهم من قولك: وعظتُك بكذا، فتكون الباء الباء: للتَّعدية، قد دخلَتْ على الشَّيءِ المُوعَظ به، وهي الجملة الدَّالَّة على الوعَظ.

الباء للسَّببيَّة، والمعنى ولو أنَّهم فعلوا الشَّيء الَّذي يُوعظون بسببه تركه

تحتملُ الباءُ معنى: السَّببيَّة، فيُحملُ اللَّفظ حينها على الظَّاهر، ويصحُّ المعنى على تقدير: ولو أنَّهم فعلُوا الشَّيء الَّذي يُوعظون بسببه، أي: بسبب ترْكِه، ودلَّ على حذف ترْكِه قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ﴾، ويبقى لفظ ﴿يُوعَظُونَ﴾ على ظاهرِه، ولا يحتاج إلى ما تأوَّلوه[1].

وجهُ الخيريَّة، وعلَّة التَّعبير عنها:

حصولُ الخيريَّة في الدُّنيا والآخرة، أو المبالغة فيها

قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ يحتملُ أنْ يكون المعنى: أنْ يحصلَ لهم خيْرَا الدُّنيا والآخرة، ويحتمل أنْ يكونَ المعنى المبالغة والتَّرجيح، وهو أنَّ ذلك أنفع لهم وأفضل من غيره؛ لأنَّ قولنا: "خير" يُستعمل على الوجهين جميعًا[2].

عبَّر بالخيريَّة لبيان تحقُّق وقوعها، وتوكيد ذلك

أكَّد تحقُّق الخيريَّة بالفعل (كان): الدَّالِّ على تحقُّق الوقوع في الماضي المؤكَّد بلام التَّوكيد، والتَّعبير عنه بالمصدر ﴿خَيْرًا﴾، ثمَّ نسبته ﴿لَّهُمْ﴾: فيه مَزيد ترغيبٍ لهم به كونه مخصَّصًا بهم، "فتمتدُّ الخيريَّة في عاجلهم وآجلهم"[3].

بلاغة التَّعبير عنِ التَّثبيت بالمصدر:

المصدريَّة أقْوى في الدَّلالة على حدث التَّثبيت

معنى التَّثبيت: يحتمل أنَّه التَّثبيت على الإيمان وعدم الاضطراب فيه، ويحتمل أنَّه تثبيتهم ببقائهم بين أعدائهم، ولعزَّتهم وحياتهم الحقيقيَّة، فإنَّهم إنَّما يكرهون القتال استبقاءً لأنفسهم، ويكرهون المهاجرة حبًّا لأوطانهم، فعلَّمهم الله أنَّ الجِهاد والتغرُّب فيه أو في

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/298.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ المُراد بالخير خير الدُّنيا، وبالتَّثبيت التَّثبيت فيها، بدليل قوله عاطفًا عليه: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧﴾ [النِّساء: 67]، ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/115.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/530.

غيره أشدُّ تثبيتًا لهم؛ لأنَّه يذودُ عنهم أعداءَه[1]، وفي ذلك عُسْرٌ ناسبَهُ صيغةُ التَّفعيل الدَّالِّ على المبالغة.

سرُّ تقويةِ التَّثبيت بالشِّدَّة:

تقفيةُ الشِّدَّة بالتَّثبيت؛ ليكون في الأخذ بالتَّكليف تثبيتٌ على الحقِّ

في قوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ بالغَ في التَّعبير عنِ التَّثبيتِ بالشِّدّة وقوَّاه؛ ليكون في الأخذ بالتَّكليف الَّذي يُطاق تثبيتٌ على الحقِّ، للتَّمكين مِنَ الاستمرار عليه، فالاستمرار على فعلِ ما هو حقٌّ يثبِّته ويقرِّب الغاية منه[2]؛ لكونه أشدَّ لتحصيل عملهم، ونفي جهْلِهم، وأثبتَ لأعمالهم، واجتناءِ ثمرة فعالهم[3].

علَّة تقديم الخيريَّة على التَّثبيت:

تقديمُ تحصيلِ الخير؛ لأنَّه سابقٌ لطلب بقائه

إنَّ الإنسان يطلبُ أوَّلًا تحصيلَ الخير، فإذا حصَّله؛ فإنَّه يطلب أن يصير ذلك الحاصل باقيًا ثابتًا، فقوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ إشارة إلى الحالة الأولى، وقوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ إشارة إلى الحالة الثَّانية[4].

بلاغة عودِ الضَّمير في الآية:

الجمع بين الخاصِّ والعامِّ في الضَّمير؛ ليشملَ المؤمنَ والكافرَ

الضَّمير في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا﴾ مختصٌّ بالمُنافقينَ، ومرجع الضَّمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إلى المُنافقينَ، ويجوز عوده إلى النَّاس كافَّة، المؤمن والمنافق، ويكون المُراد بـ(القليل) المؤمنين، ولا يبعد أن يكون أوَّل الآية عامًّا، وآخرها خاصًّا[5].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البيت، والمنزل، والمسكن، والدَّار:

البيت خاصٌّ بالمبيت ليلًا، والمَنزِل مَوضِعُ النُّزول

أصلُ البيت: مَأوى الإنسان باللَّيل؛ لأنَّه يُقال: بات: أقام باللَّيل،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/114.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1748.
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1307.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/298.
(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/130، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 3/214.

ثمَّ قد يُقال للمسكن: بيت من غير اعتبار اللَّيل فيه، فالبيوت بالمسكن أخصُّ[1]، والمَنزِل: مَوضِعُ النُّزول[2].

المسكن مظنَّة الاستيطان مِنَ السُّكون

السُّكون: ثبوت الشَّيء بعد تحرُّك، ويُستعمل في الاستيطان نحو: سكن فلان مكان كذا، أي: استوطنه، واسم المكان: مَسْكَنٌ، والجمع: مساكن[3].

الدَّار اسم عامٌّ جامع للبناء بيتًا، ومحلَّةً، وبلدةً، وهو أنسبُ لسياق الهجرة

الدَّار: اسم جامع للعَرْصة والبناء والمحلَّة، وكلُّ مَوضِع حلَّ به قوم؛ فهو دارهم[4]، ثمَّ تسمَّى البلدة: دارًا، والصِّقع دارًا، والدُّنيا دارًا[5].

فكان استخدام لفظ "الدِّيار" في الآيةِ الكريمة أنسب لسياق الهجرة، والإخراج من عموم محلِّ السُّكنى: بيتًا، وسكنًا، ومنزلًا، وبلدًا.

العمل، والفعل:

يُستعمل الفعلُ لمَا يكون دُفعةً واحدةً

من وجوه التَّفريق بين العمل والفعل: أنَّ العمل يُستعملُ لمَا يمتدُّ زمانُه، وأمَّا الفعل؛ فيكون دُفعةً واحدةً[6]، ولذلك اختار لفظ الفعل؛ لأنَّه يُستعمل لمَا يكون دفعةً واحدة، وهو أنسب لفعلي قتل النَّفس أو الخروج مِنَ الدِّيار المتعاقبين في الآية الكريمة من غير فاصل بينهما.

فعلا قتلِ النَّفس والخروج أفعالٌ بدنيَّة لا صلة لها بجارحة اللِّسان

(العمل): كلُّ أداءٍ مُهِمَّةٍ من جارحةٍ، أمَّا (الفعل)؛ فهو تعلُّق كلِّ جارحة غير اللِّسان بالحدث، فالعملُ هو شغل الجارحة بالحدث المطلوب منها، لكنَّ الفعل هو: شغل جارحةٍ غير اللِّسان بالعمل المطلوب منها[7]، ولخصوصيَّة الفعل اختير في الآية الكريمة؛ لكون

(1) الرَّاغب، المفردات: (بيت).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نزل).
(3) الرَّاغب، المفردات: (سكن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (دور - دير).
(5) الرَّاغب، المفردات: (دار).
(6) السُّيوطيّ، معترك الأقران: 3/604.
(7) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 3/1849.

فعلي: قتلِ النَّفس، والخروج منَ الدِّيار أفعالًا بدنيَّة لا صلة لهما بجارحة اللِّسان.

إيثار لفظ الفعل وصفٌ لصنيعهم بالجهل

الفعلُ: التَّأثير من جهة مؤثِّر، وهو عامٌّ لمَا كان بإجادة أو غير إجادة، ولمَا كان بعلم أو غير علم، وقصد أو غير قصد، ولمَا كان منَ الإنسان، والحيوان، والجمادات[1]. وإيثار لفظ الفعل وصفٌ لصنيعهم بالجهل؛ لاتِّسامهم بعدم الإجادة، وعدم العلم.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 134، والرَّاغب، المفردات: (فعل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»